مقياس السيميولوجيا العامة

ماستر1 سمعي بصري

الأستاذ زياد اسماعيل

المحاضرة الثالثة

. علاقة السيميولوجيا باللسانيات:

مما لا شك فيه أن للسيمائيات علاقات بحقول معرفية أخرى. إذ سبق لنا أن رأينا –مع سيوسير- العلاقة القوية بين علم السيميولوجيا وبين السيكولوجيا من جهة، وبينه وبين السوسيولوجيا من جهة ثانية. كما أن للسيميولوجيا روابطَ مع أنواع أخرى من مجالات التفكير، حيث يقول جان كلود كردان: "من المؤكد أن علم السيميولوجيا هو التقْليعة الراهنة، إذ لا تمر شهورٌ دون أن نعثر على إحالات جديدة تشير إلى العلائق التي يقيمها مع شتى أنواع مجالات التفكير التي كانت تبدو إلى حد الآن في غير حاجة إليها: علم النفس، النقد المسرحي، التحليل الأيقوغرافي (علم الصور)، دراسة الأساطير، بل حتى تقنيات التوثيق..."[1].

لقد ذهب دو سوسير إلى أن اللسانيات جزء من علم عام هو "السيميولوجيا". يقول: "ولا تمثل اللسانياتسوى فرع منه، وستكون القوانين التي تكتشفها السيميولوجيا قابلة للتطبيق في مجال اللسانيات، التي ستظل مرتبطة بمجال محدد داخل مجموع الوقائع الإنسانية، أما موقع السيميولوجيا الدقيق، فسيناط تحديده بعالم النفس"، وإذا كانت السيميائيات في نظر سوسير تستوعب اللسانيات على مستوى الموضوع، فإن اللسانيات بالمقابل تقدم للسيميائيات نموذجا منهجيا عليها أن تقتدي به فاللغة تقد من جهة وأكثر من أي شيء أخر أساسا يساعد على إدراك طبيعة المسألة السيميولوجية ولكن لطرح هذه المسألة السيميولوجية بكيفية مرضية، ينبغي أن تدرس اللغة في حد ذاتها، فدراسة النسق اللساني دراسة محايثة إذن من شأنه أن يقدم كبير العون لعلم السيميائيات، لأن اللغة هي النسق التواصلي الأكثر تداولا، بل سيذهب سوسير إلى ما هو أبعد، وذلك حين أعتبر أن علم اللسان هو النموذج الذي ينبغي أن تتأسس السيميائيات على منواله، وقد ترتب عن هذا أن بوئت اللغة مكانة متميزة بين أنظمة العلامات يقول " أنالعلامات التي تتميز بالاعتباطية المطلقة تحقق أكثر من غيرها العملية السيميولوجية، ولهذا السبب فإن اللغة هي أكثر الأنظمة التعبيرية تعقيدا وانتشارا هي أكثرها تمثيلا للعملية السيميولوجية، ومن هذا المنطلق يمكن أن تصبح اللغة النموذج العام لكل السيميولوجيات بالرغم من كونها نسقا خاصا فحسب"

---

[1]- جان كلود كردان : **التحليل السيميوطيقي والأدب، تر: عبد الرحمن طنكول**، مجلة (دراسات سيميائية أدبية لسانية)، فاس، عدد 1، 1987، ص 30.

والملاحظ بهذا الصدد أن سوسير قصر اهتمامه على اللغة، في حين لم تحظ منه النسقة الأخرى إلابإشارات عابرة، فهو لم يحاول حصرها، ولم يقدم أي معيار لتحديد طبيعتها[2].

وفي المقابل، يرى بارث أن اللسانيات أصل والسيميولوجيا فرع. يقول إن "اللسانيات ليست جزءا من النظرية العامة للعلامات... إن السيميولوجيا جزء من اللسانيات"[3].

وحجته في ذلك أن العلامات غير اللفظية الدالة لا تستطيع الاشتغالدون سند من اللغة، فهو يعترف بكون " الأشياء والصور والسلوكات تؤدي إلى دلالات، وهي تفعل ذلك بامتياز، ولكنها لا تقوم بذلك بشكل مستقل أبدا، فكل الأنساق السيميائية تمتزج باللغة"، لتوضيح هذه الأطروحة يقدم بارث بعض الأمثلة من حقل الموضة ومجال الصورة، فاللباس يحمل دلالات متنوعة، بحيث يصح الحديث فيه عن خطاب الموضة، لكنه لا يفعل ذلك إلا بفضل واسطة اللغة يقول " هل يستطيع اللباس لكي يدل الاستغناء عن كلام يصفه ويعلق عليه، ويمنحه دوالا ومدلولات وفيرة، حتى يصبح نسقا من الدلالات؟ إن التواصل الإنساني رهين باللغة،وليس بوسع أي عملية سيميائية أن تتجاهل هذه الحقيقة"، وينطبق الأمر ذاته على الصورة، فهي مصحوبة باللغة معظم الأحيان في شكل عناوين أو هوامش أو تعاليق... تدعم وظيفتها الدلالية، بل يذهب بارث إلى ما هو أبعد حين يقرر " من الصعب أكثر فأكثر تصور نسق من الصور أو الأشياء تستطيع مدلولاته أن توجد خارج اللغة، فلا وجود للمعنى إلا عبر اللغة.

قد يعجب القارئ لهذا الموقف الصادر عن باحث معروف باستقصاء العديد من أنسقة العلامات والبحث عن خصوصياتها وآليات اشتغالها مثل الصورة الموضة والهندسة المعمارية والإشهار، وقد أثارت هذه الأطروحة حول صلة السيميائيات باللسانيات جدلا كبيرا، إذ تجند باحثون كثيرون لدحضها وتفنيدها ساعين إلى البرهنة على أن الأنسقة السيميائية الأخرى تستطيع الدلالة بصفة مستقلة. فالملاحظة التي أوردها أعضاء مدرسة لييج لدليل على ذلك، وتتلخص هذه الملاحظة في أن إطلالة بسيطة على كتب الرياضيات والفيزياء والكيمياء والتكنولوجيا، تثبت أنها مليئة بالرسوم والصور وهي رسوم وصور لا يصح الاستغناء عليها، والاكتفاء بالخطاب اللغوي[4].

بناء على هذه الملاحظات تصبح أطروحة" بارث " مجرّد افتراض لا يمنع من قيام افتراضات مخالفة تنطلق من أسس مغايرة، كما نستخلص بأنّ دوال اللّسان تتخذ

---

[2]- محمد التهامي العماري: **مرجع سبق ذكره**، ص ص 16/15.

[3] -Roland Barthes **: Eléments de sémiologie**, Revue "Communications", N° 4 ,1964 ,P 92

[4]- محمد التهامي العماري: مرجع سبق ذكره، ص ص 19/17.

في الرسالة طابعا خطّيا حيث تدرك حسب نظام تحدّده بنية الجملة، فإنّ دوال الشفرة الأيقونية تنتشر في فضاء الصورة إذ أنّ إدراك عنصر من عناصرها لا يتمّ قبل العناصر الأخرى ضرورة، فالبدء بهذا العنصر عوض ذاك مسألة متروكة لاختيار المتلقي، ومن ثمّ فإنّ الرسالة اللسانية تظلّ حبيسة قواعد النّحو والتداول خلافا للرسالة البصرية التي لا تخضع لقواعد تركيبية صارمة، إضافة إلى أنّ عناصرها تدرك بشكل متزامن ثمّ إن الرسالة اللغوية تقبل التفكيك إلى عناصر يقوم المتلقي بإعادة تركيبها ليتحصل له معناها، فهي إذن تتركّب من كلام، والكلام من جمل، والجمل من كلمات، والكلمات من مقاطع وحروف[5].

[5] حنفيبنعيسى،محاضراتفيعلمالنفساللغوي،بط،الشركةالوطنيةللنشروالتوزيع،الجزائر1980،ص64.